الفصل السادس

قيام الدولة الفاطمية

الفصل السادس

قيام الدولة الفاطمية

ينسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء[١] ، ويعرفون بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله المهدى[٢] ، تمكنوا من تأسيس دولة لهم في شمال إفريقية عرفت باسم الدولة الفاطمية.

كان القائم بالدعوة الفاطمية(الإسماعلية) . نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق . عبد الله بن ميمون بن ديصان . لقب بالقداح . بعد أن أخذ عن أبيه ضروب الحيل وتعلم جميع أسرار الدعوة وأتقنها بزرع بذور الدعوة الفاطمية بنواحي كرخ وأصبهان من أعمال فارس ، وذلك بمساعدة محمد بن الحسين الملقب بدندان الوالي على تلك النواحي ، وتم ذلك بتوجيه الدعاة إلى الأهواز والبصرة والكوفة وخرسان وسليمية قرب حمص ، وأشار عبد الله ديصان على الدعاة أن لا يظهروا ما في أنفسهم ، ويظهروا الزهد والتشيع ، والطعن على الصحابة ليكون ذلك مدخلا في ما بعد للدعوة الفاطمية[٣]

تسلم الدعوة بعد وفاة عبد الله القداح ابنه أحمد ، الذي كان يساعده رجل يدعى رستم بن الحسين بن حوشب بن دادان النجار الكوفي . من أهل الكوفة الذين كانا يقصدان المشاهد لنشر الدعوة بين زائريها[٤].

ومن الذين تقبلوا هذه الدعوة رجل من اليمن يدعى محمد بن الفضل الذي عاد إلى اليمن ، وأرسل معه أحمد بن عبد الله ، رستم بن حوشب مزودا بتعليمات متشددة ، وفي اليمن اجتمع إلى ابن حوشب جمع غفير ممن تقبلوا الدعوة ، وجمع الكثير من الغنائم والأموال والهدايا ، مما مكنه من إرسال هدايا إلى أولاد عبد الله القداح[٥] ، وذلك سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م.

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ، جـ٤ ص٣٨.
(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٢١٤.
(٣) ابراهيم أيوب : التاريخ السياسي الفاطمي ، ص٢٠ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية ، ص١٨
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص١٢٦ ، سرور : الدولة الفاطمية ، ص١٨
(٥) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص٧٩

وفي الوقت نفسه كان أحمد بن عبد الله قد أرسل برسولين يعرف الأول بالحلواني والثاني بأبي سفيان وقال لهما : "أن أرض المغرب بور، فاذهبا احرثا حتى يجئ صاحب البذر" ، فسارا ونزل أحدهما بأرض كتامة ، والآخر بسوق حمار، فمالت إليها قلوب هذه المناطق[1] .

ولما توفي الحلواني وأبي سفيان ، ووصل خبر وفاتهما إلى ابن حوشب أسرع إلى أحد أصحابه - أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي - من أهل صنعاء ، وطلب إليه تعهد الدعوة في أرض المغرب ، وقال له : " أن ارض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة عهدة لك"[2]

غادر أبو عبد الله الشيعي اليمن إلى مكة ، وزوده ابن حوشب بالمال اللازم ومرافق يدعى عبد الله بن أبي ملاحف ، وفي مكة وأثناء موسم الحج ألتقي بحجاج من قبيلة كتامة سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م[3] ، وقد استهوي أبو عبد الله الشيعي هؤلاء الحجاج بما له من قدرة على الإقناع وفن الجدل ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم وعن مدى إطاعتهم لأميرهم ، حتى تمكن من الوقوف على جميع أحوالهم ، فلما وصلوا مصر أثناء عودتهم أخذ يودعهم ، فشق عليهم فراقه ، فألحوا عليه أن يسير معهم إلى بلادهم حتى أجابهم ، ووصلوا إلى بلادهم كتامة - من بلاد الجزائر اليوم - في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م .

أكرم أهالي كتامة أبي عبد الله وأجلوه من أنفسهم كل الإجلال والتقدير، وتهافت عليه الناس وزاد التفافهم حوله حتى تمكن أبو عبد الله من التغلب على جميع المشاكل التي واجهته ، ووحد قبيلة كتامة وكون منها جيشا قويا ، وفي سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م بدأت أعماله الحربية وشجعه على ذلك ضعف دولة الأغالبة ، حيث تمكن من مد سيطرته على أكثر أجزاء هذه الدولة[4].

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ، ص٢١
(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص١٢٧ ، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون ، ص٥٢
(٣) جمال سرور : الدولة الفاطمية ، ص١٩
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص١٢٧ ، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٥٧.

وفي سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م نجح أبو عبد الله الشيعي في الاستيلاء على رقاده . تقع جنوب القيروان وهي من أعمال تونس الآن . واستقر في دار الإمارة بها[١] واستولى على القيروان ، واضطر آخر أمراء الأغالبة وهو زياد الله الثالث إلى أن يهرب إلى المشرق.

ولما تم لأبي عبد الله الفتح والنصر سار في قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق سراح عبيد الله المهدى الذي كان قد سجن عندما علم بأمره العباسيون والأغالبة ، وكان ذلك سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م واحتل أبو عبد الله الشيعي سلجماسة[٢] ، ودخل أبو عبيد الله المهدى رقاده في احتفال كبير وبين يديه أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة وبايعوه بالخلافة وتلقب بالإمام المهدى أمير المؤمنين[٣].

ولما استقر حكم الفاطميين في شمال إفريقية ، رأى أبو عبيد الله المهدى أنه لا يمكن أن يتعايش مع أبي عبد الله الشيعي الذي تدين الدولة الفاطمية في ظهورها ووجودها له ، فكان لابد من الاصطدام معه ، وبالفعل بدأت العلاقة بينهما تفتر حتى كف أبو عبيد الله المهدى يد أبى عبد الله الشيعي ويد أخيه أبي العباس ، واتفقا على قتل المهدي ، فاكتشف عبيد الله المهدي هذه المؤامرة وأمر قائده بن حباسة بالتخلص منهما فتم قتلهما سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م ، ولذا كان مصير أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية متشابها بمصير أبي مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية[٤] .

أدى حادث قتل عبد الله الشيعي إلى ثورة الكتاميين ضد المهدى مما دفعه إلى استخدام القوة وتسيير قواته بقيادة ابنه وولى عهده أبو القاسم ، الذي نجح في هزيمة الكتاميين وإخماد ثوراتهم[٥] .

---

(١) البكرى: المغرب ، ص٢٧.
(٢) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٦٠.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص٩٢.
(٤) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٦١.
(٥) جمال سرور : الدولة الفاطمية ، ص٢٥

لما استقر الأمر لعبيد الله المهدى بنى عاصمته الجديدة "المهدية" سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م، وقضي الفاطميون على بقايا الأغالبة، وقضوا على دولة الأدارسة، واصطدموا بالخلافة الأموية بالأندلس وحدوا كثيرا من نفوذها في شمال إفريقية ومدوا سيطرتهم إلى صقلية، وتصدوا لثورات البربر واستمالوا قبائلهم بالحرب تارة وبالسلم تارة أخري، وامتدت سيطرتهم غربا إلى المحيط الأطلسي[١]

ولما استقر حكم الفاطميين في شمال إفريقيا، عملوا على الاستيلاء على مصر حتى يمكنهم من هناك مد سيطرتهم على بلاد المشرق، حيث كان يسند إلى ولاة مصر ولاية الشام والحجاز، فكان امتلاك مصر يعنى امتلاك الشام والحجاز أيضا.

ولتحقيق ذلك ظلوا أكثر من نصف قرن يتحينون الفرصة فكانت أولى هذه المحاولات حين أرسل عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمي الأول حملته الأولى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م بقيادة ابنه وولى عهده أبي القاسم ومعه حباسة بن يوسف لفتح طرابلس وبرقة[٢] تمهيدا للسير نحو الإسكندرية، ونجحت هذه الحملة في قطع الصحراء، بل تمكنوا بالفعل من دخول الإسكندرية ونهبها، وامتد الأمر إلى توغل هذه الحملة في بعض مناطق الوجه البحري[٣]، واتجهت جنوبا حتى إقليم الفيوم، ولكن هذه الحملة باءت بالفشل إذ اعترضها جيش عباسي أرسله الخليفة المقتدر بالله تحت قيادة مؤنس الخادم، قيل أن عدة هذا الجيش بلغت أربعين ألفا[٤]، ونجح في إرغام الجيش الفاطمي على التقهقر، حيث اشتبك الفريقان في معركة ببلدة مشتول على مقربة من الجيزة، وانهزم حباسة[٥] وعاد إلى بلاد المغرب، حيث قتله الخليفة عبيد الله المهدى على أثر رجوعه[٦].

(١) محمد مرسى الشيخ: مصر الإسلامية، ص٢١١.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٤١.
(٣) الكندى: ولاة مصر، ص٢٦٨.
(٤) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٨٢.
(٥) الكندى: الولاة، ص٢٦٩، أبو المحاسن: النجوم، جـ٣ ص١٧٢، المقريزى: اتعاظ، ص٦٨،٦٩.
(٦) الطبرى: الرسل، جـ٢ ص٢٧، جمال سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص٦١.

وعلى الرغم من أن هذه الحملة باءت بالفشل عسكريا إلا أنها حققت هدفا أساسيا للسياسة الفاطمية ، ألا وهو تخلف عدد من أفراد هذه الحملة واستقرارهم في أماكن متفرقة بمصر كي يكونوا عونا للسلطات الفاطمية في المحاولات القادمة.

وتكررت المحاولات من قبل الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب لفتح مصر، حيث رأى عبيد الله المهدى إعداد حملة لفتح مصر، وكان ذلك أواخر سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م وتحرك هذا الجيش تحت قيادة ابنه أبي القاسم سنة ٣٠٧هـ/٩١٩م ، وعندما بلغت أنباء دخول هذه الحملة إقليم لوبية ومراقية على حدود مصر وبرقة إلى الإسكندرية اضطرب أهالي الإسكندرية ، ورحل بعضهم عن المدينة[١] ، وتمكنت هذه الحملة من دخول الإسكندرية ، وصاحبها أسطول بحري فاطمي عدته ثمانون مركبا ، ثم استولى على الجيزة ، وأخذ الفاطميون يتوغلون في بلاد الوجه القبلي حتى تمكنوا من الاستيلاء على الأشمونيين والفيوم[٢]

فأرسل الخليفة العباسي المقتدر بالله جيشا تحت قيادة مؤنس الخادم إلى تلك البلاد وأرسل أسطولا تحت قيادة قائد طرسوس ، وتم اللقاء بين الأسطولين عند مدينة رشيد انتهت الواقعة بهزيمة ساحقة للأسطول الفاطمي[٣] ، وتمكن الجيش العباسي من إحراق السفن الفاطمية ، وقتل معظم جندهم وأسر بعضهم[٤]

وكانت الحملة الثالثة للفاطميين على مصر أيام الخليفة الفاطمي القاسم بن عبيد الله المهدى الذي لقب بـ"القائم بأمر الله" وذلك سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م ، وقد استمر تجهيز هذه الحملة زهاء ثلاث سنوات (٣٢١-٣٢٤هـ/٩٣٣-٩٣٥م) ، وتمكنت هذه الحملة من دخول الإسكندرية دون مقاومة شديدة ، حيث انضم بعض الزعماء المصريين إلى جيش المغاربة الذي دخل المدينة في ربيع الثاني سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م[٥] ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق

(١) الكندى: الولاة ، ص٢٠٧ ، أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص١٨٧.
(٢) جمال سرور: الدولة الفاطمية في مصر ، ص٦٢.
(٣) الدوادارى: كنز الدرر ، جـ٦ ص١١٢ ، المقريزى: الخطط ، جـ١ ص١٤٧
(٤) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٨٣.
(٥) الكندى: الولاة ، ص٢٨٧.

هدفها ، حيث أرسل الإخشيد إليها قوة كبيرة استطاعت إلحاق الهزيمة بالفاطميين الذين اضطروا إلى العودة لبلادهم بعد مقتل قائدهم ، وتمكن الحسن بن طغج الإخشيدي أخو محمد بن طغج الإخشيدي من دخول الإسكندرية ، وقضي على من كان فيها من الفاطميين[١] .

وعلى الرغم من فشل تلك المحاولات إلا أن الفاطميين لم يرفعوا أنظارهم عن مصر ، وإن كانت حملاتهم قد توقفت بسبب وجود رجل قوي في مصر "كافور الإخشيد" من ناحية ، وكذلك انشغال الخليفة الفاطمي المنصور الذي آلت إليه الخلافة بعد وفاة أبيه "القائم" سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م بضبط الأمور في بلاده ، بجانب ما تتطلبه هذه الحملات من أعباء مالية[٢] ، ومن ناحية أخري حاول كافور تحسين علاقته بكل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي ، فكان كما يذكر أبو المحاسن:"يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء"[٣].

وفي عهد كافور حاول المعز الذي تولي الخلافة سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م إعادة الكرة للاستيلاء على مصر ، فبعث جموعا من عساكره هاجمت الواحات المصرية فأعد كافور جيشا أجلاهم عنها[٤].

ولما توفي كافور سنة ٣٥٧هـ /٩٦٧م اضطربت الحالة السياسية لمصر ، حيث اجتمع كبار القواد والموظفين وعقدوا الولاية لأحمد بن علي الإخشيد ، وكان صبيا في الحادية عشرة من عمره[٥] ، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفرات بتدبير أمور ولاية مصر ، وأصبحت البلاد في عصره مسرحا للفوضي وتعرضت مصر لأزمة اقتصادية ، حيث بدأ انخفاض النيل سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م ، وظل تسع سنوات حتى سنة ٣٦٠هـ /٩٧٠م[٦] ، وما

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص١٧٤ ، جمال سرور: الدولة الفاطمية في مصر ، ص٦٣.
(٢) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٨٩.
(٣) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص٦.
(٤) جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص٦٥.
(٥) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص٩.
(٦) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٣٣٠.

إن علم المعز لدين الله بما آلت إليه البلاد المصرية من سوء الأحوال حتى أعاد الكرة في التفكير في غزو مصر.

وأعد المعز المال اللازم للحملة التي ستقوم بذلك[١] ، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاما ، وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر[٢] ، وأمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر وأقام المنازل على رأس كل مرحلة للاستراحة[٣] .

وكانت الإسكندرية لا تزال في حالة من الاضطراب والفوضى منذ الحملات الأولي حتى قدمت جيوش المعز مع القائد جوهر الصقلي ودخلت المدينة دون مقاومة تذكر ، ومنع الجند من التعرض للأهالي[٤] ، وكان ذلك سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م وبلغ عدد جيشه ما يزيد عن مائة ألف جندي[٥] ، كما صاحب هذا الجيش أسطول بحري ليقضي على أي اعتداء من قبل الروم الذين كانوا قد بدءوا يطمعون في استعادة مصر من جديد[٦].

لماذا فكر المعز في فتح مصر ؟

نجد أنه فكر في ذلك للآتي :

- أغراه على القيام بذلك ضعف الخلافة العباسية وتحكم بنو بوية . وهم من الشيعة . في الخلفاء العباسيين.
- أراد الخليفة المعز أن يحقق مشروع آبائه في غزو مصر لتكون حاضرة لخلافتهم ويتخذ منها مكانا منافسا لبغداد وقرطبة.
- انشغال الخليفة العباسي الطائع بحروبه مع البيزنطيين في الشام ، بجانب ضعفه وعدم تمكنه من إرسال جيوش إلى مصر لنجدتها.

(١) ابن كثير: البداية ، جـ١١ ص٢٦٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٩٣ ، ٩٦ ، سيدة كاشف: عصر الإخشيديين ، ص٣٦٥.
(٣) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر، ص١٠٢،١٠١.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢ ص١٧٤، جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص٦٧.
(٥) أبو المحاسن: النجوم، جـ٤ ص٧٣.
(٦) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر، ص١٧٧.

- رأي المعز أن أرض المغرب كانت مجدبة لا تصلح كإقليم يدعم أساس دولته الناشئة وخلافته الشابة.

وهناك أمور ساعدت الفاطميين على غزو مصر منها الآتي:

- ما تعرضت له الدولة العباسية على أيدي القرامطة.
- تأثير الدعاية الفاطمية في أراضي الدولة العباسية ، حيث وصلت إلى بغداد نفسها ووجدت قبولا من البويهيين ، وكانوا يدينون بالمذهب الشيعي.
- ساعد المعز أيضا ضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السيادة الفعلية على مصر
- المجاعات التي اجتاحت مصر وسببت الغلاء بجانب انتشار الأمراض.
- تنكر غلمان كافور له ، وطمع أحد أمراء النوبة في جنوب مصر حيث هاجم أخميم.
- قوة الدولة الفاطمية الفتية الشابة وما تميز به المعز من قوة وشجاعة ودهاء ، حيث تجنب أخطاء سابقيه وأرسل الجواسيس لمصر قبل إرسال جيوشه لغزوها.
- إسناد قيادة الحملة إلى قائد محنك هو جوهر الصقلي الذي حقق كثير من الانتصارات الحربية بالمغرب بعد أن مهد له الطريق ، وأمده بجميع الإمكانيات العسكرية والمادية التي ساعدته على نجاحه في غزو مصر.

ووصل جوهر الصقلي إلى الإسكندرية ودخلها دون قتال ، فلما وصلت الأنباء إلى الفسطاط اضطرب أهلها وتملكهم الذعر واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل في طلب الصلح والأمان[1] ، فأرسل وفدا على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله ، وألتقي الوفد المصري بالوفد الفاطمي عند قرية تروجه . إحدى قري محافظة البحيرة الحالية . وانتهي الأمر بعهد الأمان للمصريين[2].

غير أن الإخشيديين ومن كانوا لا يميلون إلى الفاطميين لم يستسلموا لتلك القوة الدافقة ، ويذعنوا لرغبة الشعب بل خرجوا ليصدوا جيش جوهر الصقلي ، فعسكروا وراء

(١) جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص٦٧.
(٢) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص٣٠ ، سيدة كاشف: عصر الإخشيديين ، ص٢٢٦.

النيل من جهة الجيزة ، ولما وصل جوهر بالقرب من الفسطاط عبر بجيشه النيل إليهم وهاجمهم وقتل فيهم مقتلة كثيرة وهزمهم ودخل الفسطاط ، ثم طلب أهلها الأمان وخرج رجال الدولة والعلماء والقضاة والأشراف وكبار التجار والأعيان لاستقبال جوهر وتهنئته بالفتح ، وذلك بعد أن أذاع جوهر الصقلي منشورا يحرم على جنده أن يقوموا بأعمال السلب والنهب[١].

وهكذا بدأ حكم الفاطميين في مصر وزال عهد الدولة الإخشيدية[٢] ، ووضع جوهر أساس المدينة الجديدة التي عمل على إنشائها شمال الفسطاط في ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م وهى مدينة القاهرة ، وسوف نتناول نشأتها بالتفصيل عند الحديث عن عواصم مصر الإسلامية ، كما وضع في الليلة التالية أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز لدين الله ، ثم أقام حول تلك المدينة والقصر سورا كبيرا[٣].

كذلك رأي جوهر ألا يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الشيعي مذهب الدولة الفاطمية ، خشية أن ينال غضب المصريين ، ولذا قام ببناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م ، وانتهي من بنائه سنة ٣٦١هـ/٩٧١م[٤].

استمر جوهر حاكما للديار المصرية بعد أن تولى أمورها زهاء أربع سنوات وعشرين يوما ، حتى وجد المعز لدين الله أن الأمور في مصر قد مهدت له ، فانتقل من مقره في المهدية إلى مدينته الجديدة القاهرة المعزية ، وذلك سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، وصار جوهر من عظماء القواد في دولة المعز[٥].

بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بداية طيبة وعملوا على استمالة المصريين ولم يسمحوا للمغاربة بالسكن في مدينة الفسطاط ، وجعلوهم بالقاهرة[٦] ، والواقع أن حكم

(١) المقريزى: اتعاظ ، جـ٢ ص١٥٧، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص١٠٦، ١٠٧ ، سيدة كاشف: عصر الإخشيديين ، ص٣٧.
(٢) سيدة كاشف: عصر الإخشيديين ، ص٣٧.
(٣) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٣٧٧ ، أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص٣٤.
(٤) المقريزى: الخطط ، جـ٢ ص٢٧٣.
(٥) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص٧١ ، ٧٢.
(٦) ابن ميسر: تاريخ مصر ، ص٤٥.

الدولة الفاطمية في العالم الإسلامي امتد نحو مائتين وسبعين سنة منذ أول تأسيسها في المغرب سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م بعد مبايعة عبيد الله المهدي إلى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م.

أما حكم الدولة الفاطمية في مصر فقد امتد قرابة قرنين من الزمان (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، يمكن تقسيمهم إلى قسمين كبيرين، القسم الأول يمتد حوالي قرن من الزمان، إذ يبدأ من سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وينتهي في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله حوالي سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م وهو عصر القوة والازدهار، حيث بلغت فيه الدولة قمة مجدها وعظمتها واتساع نفوذها، واتسم بخلافة خلفاء عظام اتسموا بقوة الشخصية وحسن التدبير، وسيطرتهم على مقاليد الأمور، وجعلهم وزراءهم في المرتبة الثانية، ويمكن أن يطلق عليه عهد سلطة الخلفاء[١].

وأول هؤلاء الخلفاء هو المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م) الذي عرف بجبار الشيعة، وكان على درجة كبيرة من الذكاء ويجيد لغات متعددة اهتم بشئون مصر المالية، ومنع النداء بزيادة النيل، إلا إذا تم الفيضان[٢]، وكان من أهم أعماله:

- عهد بالإشراف على الشئون المالية إلى كل من يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن وأمر بإصلاح العملة حيث ضرب الدينار المعزى[٣].
- تصدى لجيش القرامطة الذى كان يهدد مصر[٤].
- اهتم بإنشاء أسطول قوي للدفاع عن مصر من ناحية البحر.
- بنى دارا جديدة لصناعة السفن في المقس، وأنشأ بها في عهده ستمائة سفينة حربية، وتوفى المعز سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م[٥].

(١) جمال الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ١، ص١٥١
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١ ص٤٧٠، حمدى المناوى: نهر النيل، ص١٥٩.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٩٩، جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص١٤١
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٢٥٠، يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص٢١٦،٢١٧.
(٥) أبو المحاسن: النجوم، جـ٤ ص٧٧، الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، جـ١، ص١٥٢

العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/ ٩٧٦ - ٩٩٦م) :

كان كما وصفه المؤرخون شجاعا كريما سمحا مثقفا ، وجه هدفه الأول نحو التوسع الخارجي حتى امتدت الدولة في عهده من المحيط الأطلسي غربا إلى الخليج الفارسي شرقا، ومن اليمن جنوبا إلى أطراف بلاد الشام شمالا ، وخطب له في جامع القسطنطينية[١] ، ويعد دور العزيز بالله في الدوله الفاطمية شبيها إلى حد كبير بدور أبي جعفر المنصور في الدوله العباسية ، ومن أهم تنظيماته الآتي:

- شكل الوزارة علي أسس قوية ، ورتب الدواوين ، وانتخب وزراء أقوياء من اليهود والنصارى ، مثل يعقوب بن كلس ، عيسي بن نسطورس وغيرهما[٢].
- عرف بالتسامح مع أهل الذمة الذين نعموا بالحرية في عهده.
- ازدهرت في عهده ثروة البلاد فعاش الناس في رفاهية.
- حول الجامع الأزهر إلى مدرسة علمية وجامعة إسلامية ، واهتم بالعمران فشيد القصور وشرع في بناء جامعه الكبير الذي أتمه من بعده ابنه الحاكم[٣].
- اهتم بإعداد جيش قوي وادخل فيه عناصر جديده من الترك والديلم بعد أن كان معظمه من المغاربة[٤].

مات العزيز في بلبيس ، وكان قد خرج لحرب القرامطة ، وهو في سن الرابعة والأربعين من عمره وذلك سنه ٣٨٦هـ /٩٩٦م.

(١) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص١٥١
(٢) حمدى المناوى: الوزارة والوزراء ، ص٢٤١ ، ٢٥٠ ، ٣٠٥
(٣) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٢٧٧.
(٤) جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٠١.

الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ - ٤١١هـ/٩٩٦ - ١٠٢٠م) :

تولي الخلافة بعد أبيه العزيز وكان صبيا صغير السن في الحادية عشرة من عمره[١]، فتولي الوصاية عليه مربيه برجوان الخادم ، ولكن الحاكم قتله غدرا بعد مرور أربع سنوات تخلصا من ثقل وصايته وبدأ يتحكم في زمام الأمور منذ سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م[٢]، وأخذ يتصرف تصرفا مطلقا في كافة الأمور رغم صغر سنه ، حتى أصبح شخصية مهابة يخشاه الجميع من الخاصة والعامة ، وظهر في تصرفاته الكثير من الشذوذ.

- اتسم بالقسوة والعنف والميل إلى سفك الدماء حيث وصل عدد من قتله حوالي ١٠ آلاف إنسان[٣] .
- كان شجاعا مقداما تارة وجبانا مترددا تارة أخرى .
- منع الناس من تقبيل الأرض إكراما له ، أو تقبيل ركابه أو يديه عند السلام عليه في المواكب.
- كان مترددا في كثير من الأحيان حيث أمر أن يكتب علي المساجد والجوامع وأبواب الحوانيت سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحه والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص ، وذلك سنه ٣٩٥هـ/١٠٠٤م .ثم محا ذلك بعد عامين في سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م ، وارتدى الصوف سبع سنين[٤].
- أمر بغلق الحوانيت نهارا وفتحها ليلا
- أصدر أمرا بقتل الكلاب في جميع الديار المصرية ثم أوقف ذلك .
- حمل علي عاتقه أن يقوم بالحسبة ، وأصدر عدة أوامر يمنع من خلالها تناول أو بيع بعض المأكولات مثل الدلنيس ، وهو نوع من الصدف . ربما يكون أم الخلول .

(١) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص١٧٦ ، عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله ، ص٢٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل ، جـ٧ ص١٨٠.
(٣) أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص١٨٤.
(٤) أبو المحاسن : النجوم ، جـ٤ ، ص١٧٨

وحرم أكل الملوخية والترمس العفن ، والجرجير ، والقرع ، وهذا سببه تعصب مذهبى[١].

- أمر ألا يباع شيء من سمك بدون قشر ، وألا يصطاده أحد من الصيادين.
- منع شرب الخمر ، وصنع النبيذ ، وأمر بقطع الكروم وكسر جرار العسل[٢].
- منع صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها.
- حاول وضع حد لسفور النساء ، فمنع مشيهن وراء الجنائز ، ثم منعهن من الخروج نهائي ، ولتنفيذ ذلك أمر الأساكفة بعدم عمل الأخفاف لهن ، واستمر ذلك من سنة ٤٠٤هـ /١٠١٣م إلى سنة ٤١١هـ/١٠٢١م أي لمدة سبع سنوات[٣] ، ولم يسمح خلالها إلا بالخروج لمن دعت الضرورة إليه من النساء ، مثل الغاسلة أو الراغبة في السفر[٤] .
- ومن الأشياء التي أخذت علي الحاكم اضطهاده لأهل الذمة الذين كانوا قد اشتد بأسهم بين المسلمين منذ أن تمكنوا في عهد أبيه العزيز ، مما اضطره إلى الرجوع لتطبيق الشروط العمرية[٥] ، أو إلزامهم بالتميز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار[٦]وغيرها من الأمور الأخرى ، وعلي الرغم من ذلك نجد أن الحاكم عدل عما زاده علي الشروط العمرية واكتفي من أهل الذمة بلبس الغيار فقط ، وأمر بإعادة بناء الكنائس التي كان قد أمر بهدمها ورد أوقافها ، حيث كان قد هدم كنيسة القيامة.

---

(١) عبد المنعم ماجد: الحاكم ص٩١ ، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون ، ص٢٢١ ، الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، جـ١ ، ص١٥٣

(٢) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٢٨٦ ، الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٥٤

(٣) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص١٧٨.

(٤) عبد المنعم ماجد: الحاكم ، ص٩٥.

(٥) انظر الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٣٨-١٣٩، قاسم عبده قاسم: أهل الذمة ، ص٢٦.

(٦) المقريزى: الخطط ، جـ٣ ص٢٨٧ ، الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ص١٥٤

- زاد في بناء الجامع الأزهر سورا وزاد علي ما أوقفه عليه أبوه العزيز من أوقاف وهبات[1].
- أنشأ الحاكم سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م مدرسة لتعليم المذهب السني وأهدي هذه المدرسة دار كتب وعين أبا بكر الأنطاكي ناظرا لها[2].
- أمر بإتمام بناء جامع أبيه وعرف بجامع الحاكم، وانتهي من بنائه سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م.
- وقد أنشأ في عهد الحاكم دار الحكمة التي كان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة واللغويون، وألحق بها مكتبه أطلق عليها دار العلم حوت الكثير من أمهات الكتب مما ألف في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية.

ومن أهم الأحداث السياسية في عهده هجوم الخلافة الأموية بالأندلس علي الدولة الفاطمية من جهة الغرب وهي حركه أبي ركوة.

حركة أبي ركوة:

قاد أبو ركوة[3] ثورة ضد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وذلك سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م[4]، وهو أحد أبناء عمومة "المؤيد هشام بن الحكم"، الذي حكم الأندلس خلال الفترة (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م)، وكان هشام ملكا ضعيفا تحكم فيه وزيره المنصور، وأخفاه عن الناس، بل امتد به الأمر إلى تتبع أهله، فقتل بعضهم وفر البعض الآخر[5].

---

(١) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٦٢٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم، جـ٢ ص١٠٥.
(٣) أبو ركوة: هو الوليد بن هشام العثماني الأموي الأندلسي، من ولد هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل، عاش في القيروان وعمل بتعليم القرآن قبل أن يفر من الأندلس إلى مصر، سمى أبو ركوة لأنه كان يحمل ركوة "قربة صغيرة من الجلد" على كتفيه شأن الصوفيين، ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١ ص٣٣٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٧٩، ٢١٥، ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص٥٧.
(٤) الدوادارى: كنز الدرر، ص٢٧٥، أتربى أبو العز: الدرر المنتخب في تاريخ المصريين والعرب، ص٤٩.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩ ص١٩٧، ١٩٨، عطية القوصى: دولة الكنوز الإسلامية، ص٧٩

وكان أبو ركوة أحد هؤلاء الأمراء الفارين من الأندلس ، وكان عمره حينئذ إحدى وعشرين سنة ، وقصد مصر ، وكتب الحديث بها ثم سار نحو مدن الشام ، وعاد إلي مصر ثانية ودعي بها للقائم العباسي[١] ، واستمال عرب برقة والبحيرة ، حيث انضم إليه بنو قرة الجذاميون ، الذين كانوا يقيمون بالبحيرة قبل حلول بني سنبس محلهم[٢] .

وكان سبب استجابة بنو قرة لحركة أبى ركوة سوء العلاقة بينهم وبين الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، فعندما تخلوا عن الوالي الذي عينه الحاكم علي طرابلس - يحي بن علي بن حمدون الأندلسي - رد علي ذلك الحاكم بأن قتل عددا منهم بالإسكندرية ، كما أرسل جيوشا لتأديبهم[٣] ، هذا بجانب موقفه المتشدد مع أهل السنة واضطهاده لهم ، وإسرافه في قتل رؤساء القبائل وحبس بعضهم وأخذ أموالهم ، ولذا كانت القبائل العربية في مصر ومن بينها قبائل غرب الدلتا في ضنك ، ولذلك كانوا يودون خروج الملك من يده[٤] ، فبايعوا أبا ركوة بعد أن ذكر لهم أن عنده في الكتب انه سوف يملك مصر وغيرها.

ولقب أبو ركوة نفسه "الثائر بأمر الله ، والمنتصر من أعداء الله"[٥] ، بعد أن وجد مأمنه لدي بني قرة متخذا المنطقة الممتدة بين الإسكندرية وبرقة مركزا لدعوته[٦] ، حيث انضم إليه مع بني قرة الكثير من البربر - قبيلة زناتة - حيث حاربهما الأتراك[٧] ، وأخذ برجوان الصقلي يضيق الخناق علي أبى محمد الحسن بن عمار - زعيم كتامة - حتى أخرجه والكتاميين من مصر لكي يستأثر هو بالحظوة والمكانة لدي الحاكم بأمر الله[٨].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ٩ ص١٩٨ ، عطية القوصى: دولة الكنوز ، ص٤٩،٥٠.
(٢) المقريزى: البيان والإعراب ، ص٣،١١٦ ، محمد عزة دروزة: عروبة مصر ، ص١٩، عطية القوصى: دولة الكنوز الإسلامية ، ص٤٩،٥٠.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٥١،٥٢،٥٤ ، المقريزى: الخطط ، جـ٢ ص٢٨٦.
(٤) ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص٧١، جمال الدين الشيال: مصر في العصر الفاطمي ، مقال بكتاب تاريخ الحضارة المصرية، لأمين الخولى ، ص٤٤٢.
(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ، ص١٩٨ ، أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤ ص٢١٥ ، عطية القوصى: دولة الكنوز ، ص٥٠.
(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٦٠.
(٧) المقريزى: الخطط ، جـ٢ ص٢٨٦.
(٨) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ، ص٥٩.

ولما علم والي برقة باستفحال أمر أبي ركوة ، أستأذن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وخرج لقتالهم ، فهزمه أبو ركوة ، وقوي أمره بعد ذلك ، فملك برقة ، وضرب السكة باسمه ، ولعن الحاكم وآباءه فوق المنابر[١] .

وعندما وصل خبر هذه الهزيمة إلى الخليفة الحاكم عظم عليه الأمر ، فكف عن أذى الناس ، وعاود الإحسان إليهم ، وجهز جيشا لمحاربة أبي ركوة ، وكان معظم جيشه من قبيلة كتامة ، إلا أنه هزم عند منطقة ذات الحمام[٢] ، واشتد الأمر على الخليفة الحاكم بهذه الهزيمة أيضا[٣].

ومما أثر على الحاكم أنه علم بمكاتبة بعض الناس لأبي ركوة ، وأن ممن كاتبه قائد قواته - الحسن بن جوهر[٤] ، ولذلك اشتد خوفه وجمع عسكره من الشام ، واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله بن صالح[٥] ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م ، واستمرت الحروب بين عساكر الحاكم وأبى ركوة وتمكن الفضل من إنزال الهزيمة بأبي ركوة[٦].

وعند منطقة كوم شريك - إحدى قرى غرب الدلتا - نشب القتال بين الفريقين مرة ثانية ، وانتصر أبو ركوة على قوات الحاكم ، ثم دار قتال آخر عند مدينة الجيزة ، وفى هذه المعركة حاول بنو قرة استمالة العرب الذين كانوا يقاتلون مع عسكر الحاكم فأجابوهم ، والتقى الجمعان ، ولكنه نتيجة لخيانة البعض لأبى ركوة ، واكتشاف خطته في المعركة لدي الفضل ، اقتفي أثر رجاله وقتل الكثير منهم[٧].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، جـ٩ ص١٩٩ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٥ ، ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص٥٧ ، عطية القوصى: دولة الكنوز ، ص٥١.

(٢) ذات الحمام: هي قرية قديمة تقع بالغرب من الإسكندرية في طريق برقة ، وتعرف الآن باسم "الحمام"، وتقع على السكة الحديد الموصلة بين الإسكندرية ومرسى مطروح على بعد ٧٤ كم، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ، القسم الثاني ، ص٢٤٩.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٦. Stanly:History of Egypt, P128

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٦.

(٥) الفضل بن عبد الله بن صالح : من الأمراء الذين كانوا يسيرون في ركاب العزيز بالله ، وقد أصبح من القواد في عهد الحاكم بأمر الله ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، حاشية ص٦١.

(٦) عطية القوصى: دولة الكنوز الإسلامية، ص٥٢.

(٧) ابن قلانسى: ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ، ١٩٠٨م ، ص٦٦ ، ابن الأثير: الكامل ، جـ٩ ، ص٢٠٠ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٦ ، عطية القوصى: دولة الكنوز ، ص٥٢ ، ٥٣

ولما رأى بنو قرة الهزيمة تلحق بأبي ركوة تخلوا عن مواصلة القتال معه وطلبوا منه أن ينجوا بنفسه ويهرب إلى بلاد النوبة ، فوافق على ذلك ، وأما بنو قرة فقد عادوا إلى مساكنهم بالبحيرة ، واستمروا بها حتى طردوا منها في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م ، بعد أن هزمتهم جموع من طيئ وكلب وانسحبوا منها إلى بلاد الصعيد[١]

وإذا تساءلنا لماذا طلب بنو قرة من أبى ركوة الاتجاه نحو بلاد النوبة ، نجد أن ذلك لم يكن عشوائيا بل كان لذلك أسباب منها ، أنه كان هناك اتفاق بين أبى ركوة وملك النوبة ، حيث يذكر الدكتور عطية القوصي أن هذا الاتفاق كان يتضمن أن يقوم ملك النوبة بمد أبى ركوة بقوات من عنده لمواصلة القتال[٢] .

ولما حلت الهزيمة بأبي ركوة وانفض عنه الكثير من رجاله قبض عليه في بلاد النوبة ، وذلك بعد أن تخلى ملك النوبة عن اتفاقه معه حتى لا ينكشف تواطؤه وأرسل أبو ركوة إلى القاهرة[٣] ، وأنزل به ببركة الحبش[٤] ، فأمر الحاكم بأمر الله أن يشهر به على جمل ويطاف به[٥] ، فأركبوه جملا بسنامين وألبسوه طرطورا طويلا، وثوبا مشهرا ومعه رجل يمسكه من الخلف يطلق عليه الإبزازى[٦] ، ومعه قرد بيده العصا وهو يضربه والعساكر

(١) المقريزى: البيان والإعراب ، ص١١٦ ، ١١٧.
(٢) عطية القوصى: دولة الكنوز ، ص٥٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ٩ ص٢٠٢ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٦ ، ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص٥٧ ، المقريزى: البيان والإعراب ، ص٤٦ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٦٤ ، ٦٥.
(٤) بركة الحبش: هي بركة المعافر ، وبركة حمير ، وبركة الأشراف ، اشتهرت ببركة الحبش ، وهى بركة لم تكن عميقة المياه ، وإنما كانت حوضا زراعيا يغمره النيل وقت الفيضان عبر خليج بنى وائل ، وكانت تقع جنوب الفسطاط وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى الرهبان الأحباش لأنها كانت ضمن ممتلكاتهم ، وأول من زرعها قرة بن شريك ، وكانت من أكبر متنزهات مصر ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٦ ص٣٨ ، ابن مماتى :قوانين الدواوين ، ص١٠٢، أحمد عبد الرازق أحمد: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص١١٨.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ٩ ص٢٠٢ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ، جـ٥ ص٢٩٧ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٦

Stanly: A history of Egypt, P.128.

(٦) الإبزازى: هو رجل اختص بالتشهير بالخوارج على الخلفاء حيث كان يصنع للخارجين الطرطور الملون ، وكان عنده قرد يعلمه ضرب الخارجي بالعصاه ، وكان يتقاضى أجرا مقابل ذلك، يقدر بحوالي مائة دينار ، وعشرة قطع قماش ، وكان مقيما بالقاهرة ،أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٦.

حوله ، وبين يده خمسة عشر فيلا مزينة ، ودخل القاهرة ورءوس أصحابه بين يديه على الخشب ، وجلس الحاكم يشاهد هذا الموكب ، وأمر أن يخرج بظاهر القاهرة ويضرب عنقه على تل بالقرب من مسجد ريدان ، فلما حمل إلى هناك أنزله فإذا به ميت ، ولعل ذلك من كثرة ما لاقاه من التعذيب ، وكذلك الرهبة والخوف من القتل ، فقطع رأسه وحمل إلى الحاكم فأمر بصلب جسده ، وارتفعت بذلك منزلة الفضل عند الخليفة الحاكم ، إلا أن الخليفة كان يضمر له الكراهية مما دفعه في النهاية للتخلص منه بقتله[1].

وفاة الحاكم بأمر الله :

كان الحاكم قد اعتاد في أواخر حياته التجول وحده على حمار في جبل المقطم ربما مغالاة منه في حب العزلة والانفراد ، وفي ليلة من ليالي شهر شوال سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م خرج الحاكم ولم يعد مرة أخرى ، وقيل أن أخته ست الملك دبرت أمر الخلاص منه بعد أن ساءت سيرته واشتدت وطأته على الناس[2]

الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ/ ١٠٢٠ - ١٠٣٦م) :

بعد اختفاء الحاكم أجلست ست الملك أخته علي ابن الحاكم ولقب بالظاهر على عرش الخلافة[3] ، وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره ، وتحت وصاية عمته ست الملك، وكان الظاهر مبالغا في حياة اللهو ، وترك أمور الحكم في يد عمته ومعها رجال الدولة من الوزراء والقادة والقضاة ، حتى توفيت عمته سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م.

وفي عهده حدثت الكثير من المجاعات والأوبئة بسبب اضطراب النيل ، وكثرة الفوضى ، وثورات الجند والفتن بين المغاربة والسودانيين والأتراك ، وتوفي الظاهر وهو في ريعان شبابه سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٤ ص٢١٧ ، الذهبي: تاريخ دول الإسلام ، جـ١ ص٢٣٨ ، أتربى أبو العز: الدار المنتخب في تاريخ المصريين والعرب ، جـ١ ص١٦٦.

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ، ص٣٥٩.

(٣) جمال الشيال: مصر في العصر الفاطمى ، ص٤٤٢.

المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) :

حكم المستنصر ستين عاما وبضعة أشهر، وكان عمره حين ولي الخلافة سبع سنين وهو بذلك أطول عهد قضاه خليفة فاطمي بل خليفة مسلم[١] ، ونظرا لصغر سنه حكمت أمه باسمه، واستوزرت أبا سعد التتري اليهودي لأبنها، وعملت على الاستكثار من العبيد ثم زلت أمه وحكم وزراؤه، وظهر الاضطراب بعد ذلك بين المغاربة والأتراك لهذه المشكلة التي لم يكن وزراؤه قادرين على حلها حيث حدثت مجاعة شديدة ألمت بمصر، وقد بدأت سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م واستمرت سبع سنوات حتى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م[٢] ، وعرفت بالشدة المستنصرية، وعانى منها الأهالي الكثير، فعدمت الأقوات، وارتفعت الأسعار، وارتفع سعر القمح، واضطر الخليفة المستنصر أن يبيع كل ما في قصره من ذخائر وغيرها[٣].

وفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م تفاقمت الأحوال سوءا، وكثرت الفتن ولم يتمكن الخليفة من إخضاعها، ولم يجد لهذه المشكلة حلا، ولم يكن وزراؤه قادرين على حلها فاستدعي المستنصر بدر الجمالي والي عكا - الذي سارع بدوره إلى تلبية نداء الخليفة ودخل مصر ومعه جنده من الأرمن، وكان ذا قوة وشكيمة ومعرفة، فسلمه المستنصر قيادة الجيش والوزارة، وبعد مجهودات كبيرة تمكن أن يعيد الأمن والنظام ويضرب على أيدي المفسدين[٤].

عالج بدر الجمالي الحالة الداخلية في مصر وأصلح شأن الأمور المالية، ويعد هذا الحدث بداية اضمحلال سلطة الخلفاء وظهور سلطة الوزراء العظام الذين سيطروا على مقاليد الأمور في الفترة التي سميت بعصر الوزراء، وهو عصر وزارة التفويض[٥] ، وهو العصر الفاطمي الثاني.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم، جـ٥ ص١.
(٢) المقريزى : إغاثة الأمة، ص٢٤.
(٣) المقريزى : إغاثة الأمة، ص٢٠٠.
(٤) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص٣٩٤.
(٥) محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء، ص٢٧١.

يتميز العصر الفاطمي الثاني بأن عوامل الضعف أخذت تنخر في عظام الدولة الفاطمية منذ الجزء الأخير من عهد الخليفة المستنصر بالله، حيث توفي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وكان قد ترك الوصية لابنه الأكبر نزار بأن يلي الخلافة من بعده، إلا أن الأفضل بن بدر الجمالي الذي ولى الوزارة بعد وفاة أبيه عمل على تعيين أخيه الأصغر وهو المستعلي، مما سبب في أن كافة الفاطميين انقسموا إلى نزارية ومستعلية، وهذا سوف يتضح في الآتي:

النزاع بين نزار وأخيه المستعلي:

كانت منطقة غرب الدلتا وخاصة مدينة الإسكندرية بحكم تطرفها وبعدها عن مركز السلطة في مصر والعالم الإسلامي مركزاً للمعارضة، وكان أكثر أهلها من غلاة السنيين، الذين كانوا ينتهزون الفرص المواتية للانقضاض على السلطة المركزية، فكانوا كثيراً ما يرفعون علم الاستقلال ويساندون الخارجين على السلطان[١].

وظهر ذلك واضحا أثناء الفتنة التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث اعتصم أنصار عثمان رضي الله عنه بقرية خربتا - إحدى قري غرب الدلتا[٢]، كما ثارت القبائل العربية في غرب الدلتا على والى مصر محمد بن أبى حذيفة من قبل الخليفة على بن أبى طالب رضي الله عنه، واقتتل الطرفان بالإسكندرية وخربتا سنة ٣٦هـ/٦٥٦م[٣].

ونشبت ثورة أخري بغرب الدلتا، حيث قامت القبائل العربية المقيمة بالإسكندرية بالثورة على قرة بن شريك والى مصر سنة ٩١هـ/٧٠٩م[٤]، وساندت القبائل العربية في

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: الإسكندرية وحضارتها، مقال بكتاب محافظة الإسكندرية، ص ٢٩٠، سعد زغلول عبد الحميد: الإسكندرية من الفتح العربي، مقال بكتاب محافظة الإسكندرية، ص ٢٦١.

(٢) الكندي: الولاة، ص١٩، السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١ ص٨٢، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٩٤

(٣) الكندي: ولاة مصر، ص٤٢، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٩٤-٩٨، حسين نصار: الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، ص١٤، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية، ص٤٨، سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة، ص٨٠.

(٤) الكندى: ولاة مصر ص٨٤، إبراهيم أحمد العدوى: المختار من الولاة والقضاة، ص ١٦،١٧، سعد زغلول عبد الحميد: الإسكندرية من الفتح العربى "مقال"، ص٢٦١.

غرب الدلتا العباس بن أحمد بن طولون الذي خرج إلى الإسكندرية في عهد أبيه ، وأقام بها محاولا الاستقلال عن والده ، والسيطرة عليها مع برقة ، ولكن حركته هذه باءت بالفشل[١].

كما تجلى دور قبائل غرب الدلتا في النزاع بين الأمين والمأمون ، وأصبحت المنطقة شبه مستقلة ، حيث ملكت قبيلتي لخم وجذام ، الإسكندرية ومريوط والبحيرة مستغلة هذا الصراع لصالحها للوصول إلى السلطة ، وظهر دور "بنو قرة" الجذاميون في حركة أبي ركوة التي قام بها ضد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م[٢] ، وفي ظل حماية قبائل غرب الدلتا ثار الأوحد بن بدر الدين الجمالي على أبيه سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م بعد أن ساندته بعض القبائل[٣].

وهكذا كانت منطقة غرب الدلتا وما فيها من قبائل عربية ، وخاصة مدينة الإسكندرية بمثابة محطة الآمان بالنسبة للخوارج الفارين أمام سلطات الحكومات ، وكانت أيضا مركز للمعارضة عبر العصور الإسلامية المختلفة.

كما كان لقبائل غرب الدلتا دور في النزاع الذي نشب بين الأمير نزار بن الخليفة المستنصر بالله الأكبر وأخيه المستعلي ، وكان السبب في هذا النزاع أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي كان قد عهد بولاية الأمر من بعده لابنه نزار ، إلا أن الأفضل بن بدر الجمالي وزير المستنصر خلعه من ولاية العهد بعد وفاة أبيه ، ولم يوله الخلافة التي عهد بها له أبوه المستنصر أثناء حياته[٤] ، واجتمع الأفضل بالأمراء والخواص من رجال الدولة وخوفهم من نزار ، وأشار عليهم بولاية أخيه الأصغر أبي القاسم أحمد ، وبايعه بالخلافة ، ولقبه بالمستعلي بالله ، وكان ذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، وأجلسه على كرسي الخلافة[٥] ، وكان ذلك بسبب عداوة شخصية قديمة بين الأفضل

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الولاة ، ص٩٩ ، بدر عبد الرحمن محمد: الدولة العباسية ، ص٨٨.
(٢) ابن الأثير: الكامل ، جـ٩ ص٨٣ ، ٨٤ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٥٨ ، ٥٩.
(٣) سعد زغلول عبد الحميد: الإسكندرية من الفتح العربى... ، ص٢٨٧.
(٤) ابن كثير :البداية والنهاية ، جـ١٢ ص١٤٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص١٤٢.
(٥) الفارابي: تاريخ الفارابى ، تحقيق بدوى عبد اللطيف ، دار الكتاب اللبنانى، ص٢٦٧ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص١٩١ ، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط٨، ص٢٥٦.

والأمير نزار في حياة أبيه المستنصر، حيث كان الأفضل يعتقد أن نزارا إذا ولي الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة، على حين كان أبو القاسم المستعلي بالله صغير السن، ففي استطاعته إذا ما ولاه الخلافة أن يصبح له مطلق التصرف في شئون الدولة[١].

ومن الأسباب التي حدت بالأفضل إلى تعيين المستعلي وليا للعهد دون نزار الآتي :

١. تعالي نزار على الأفضل ومعايرته بأنه أرمني، ففي ذات يوم خرج من بعض أماكن القصر، فوجد الفضل قد دخل من أحد الأبواب وهو راكب، فصاح به : "انزل يا ارمني يا نجس"، فحقد الأفضل عليه وظهرت كراهية أحدهما للآخر[٢].

٢. أن الأفضل كان يغار من نزار في أمور كثيرة، ويرد شفاعته، ويحط من قدره ولا يرفع رأسا لأحد من غلمانه وحاشيته، بل ويحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر[٣]

٣. تخويف الأفضل للأمراء وقواد الجيش من نزار، وتحذيره لهم من مبايعته، معللا ذلك بقوته وسطوته، مشيرا عليهم بمبايعة أخيه أحمد، فهو صغير لا يخاف منه ويؤمن جانبه[٤]

٤. مماطلة الأفضل للمستنصر حين أراد أن يأخذ البيعة لنزار على كبار رجال دولته حتى مات المستنصر دون أن يتم شيئا، رغم أنه كان قد جعل ولاية العهد لنزار من بعده[٥].

٥. خوف نزار من ازدياد نفوذ الأفضل الذي كان قد بدأ فعلا في أواخر عهد أبيه وخشيته من تأثير هذا النفوذ عليه في حالة توليه الإمامة، وبالتالي تصبح مصر جمالية كما كانت بغداد برمكية[٦]

---

(١) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص١١٣.
Devonshire: L, Egypt Musulmans,P.P.42-43 .
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ص٣٥، أبو المحاسن : النجوم، جـ٥، ص١٤٢
(٣) المقريزي : الخطط، جـ١، ص٤١٢
(٤) أبو المحاسن، النجوم، جـ٥، ص١٤٢
(٥) ابن الأثير : الكامل، جـ٢، ص٨٢، المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١١
(٦) سهام أبو زيد : الأرمن، ص٦٣

وقد صدقت نبوءة نزار، فقد تحكم الأفضل في أمور الدولة، وبدل بعض الأوضاع على النحو الذي رآه، حيث عين الابن الأصغر للمستنصر "أحمد"، ولقب بالمستعلي، وكان المستعلي زوجا لست الملك ابنة بدر الجمالي، وأخت الأفضل[1]

ولهذه الأسباب بادر الأفضل بإخراج أبي القاسم أحمد وبايعه بالخلافة، وأحضر قاضي القضاة .المؤيد بن نصر الأنام على بن نافع بن الكحال .ومعه الشهود، وأخذوا البيعة على مقدمي الدولة وأعيانها[2].

ثم مضي الأفضل إلى الأمير نزار، والأمير عبد الله، والأمير إسماعيل أبناء الخليفة المستنصر بالله، فجاءوا إليه، واستاءوا من جلوس أخيهم الأصغر على كرسي الخلافة، وأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض بين يديه، فبايعوه مرغمين[3]ثم امتنعوا فيما بينهم، وتظاهر الأمير نزار بأنه يحتفظ بخط أبيه بولاية العهد له، وقال: "عندي الخط من المستنصر بولاية العهد لي، وأنا آتيكم به"[4]، ثم توجه من فوره إلى الإسكندرية وفي صحبته أخوه عبد الله، وابن مصال اللكي. أحد قواد الدولة .الذين أقنعهم نزار بالانضمام إليه مقابل مكافأته بالوزارة[5]، واتصل نزار بوالي الإسكندرية .الأفتكين .الذي سانده في حركته وبايعه أهل الإسكندرية بما فيهم أبناء القبائل العربية بالخلافة، وتلقب نزار بالمصطفي لدين الله[6].

(١) أبو المحاسن : النجوم ،جـ٥ ، ص٣١٨

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ، جـ٢ ص٣٥ ، الدواداى: كنز الدرر ، ص٤٤٣ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص١٤٣

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص١٤٣ ، جمال الدين الشيال: الإسكندرية في العصر الإسلامي ، ص٥٤ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص١٩١-١٩٢.

(٤) الدواداري : كنز الدرر ، ص٤٤٣ ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص١٩٢.

(٥) الدواداري : كنز الدرر ، ص٤٤٣ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ،ص١٤٣، عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص١٩٢، جمال الشيال: الإسكندرية في العصر الإسلامى ، ص٥٤ ، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية ، ص١٧٢.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ، ص٣٥،٣٦ ، الدواداري: كنز الدرر ، ص٤٤٤ ، ابن سعيد: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص٨١ ، عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص١٩٢، حسنى الخربوطلى: غروب الخلافة الإسلامية ، ص١١٢.

ولا مراء أن سير نزار إلى الإسكندرية دون غيرها من مدن مصر دليل واضح على أنها كانت مأوي للخارجين على الحكومة المركزية ، ويدل هذا أيضا دلالة واضحة على أن نزار كان على علم ودراية بشعور أهلها نحوه ، وكان ذلك من خلال إقامته بها فترات طويلة في حياة أبيه ، واكتسابه ولاءهم ، ويؤكد ذلك أنه عندما نزل بها سارع أهلها إلى مبايعته وشقوا عصا الطاعة على الخليفة الجديد ، والتف حوله العرب المقيمون حول مدينة الإسكندرية.

ومنذ هذه اللحظة انقسم أهل مصر فريقين ، فريق مع المستعلي يؤيده في الخلافة وفريق مع الأمير نزار يسانده للوصول إليها[١] ، وقد اتضح أن القبائل العربية في غرب الدلتا كانت ضمن الفريق المساند لنزار[٢].

وما أن وصل إلى الأفضل نبأ هذه الفتنة التي أثارها نزار في الإسكندرية وما حولها من مدن الوجه البحري ، حتى سارع على رأس جيشه لمحاربة نزار وأعوانه ، إلا أن نزارا تمكن من هزيمته واستفحل أمره بعد استيلائه على العديد من مدن الوجه البحري وانضمام أبناء القبائل العربية في هذه المنطقة لجانبه[٣] ، ولذا جهز الأفضل جيشا جديدا لمنازلة نزار ، وتقدم به وحاصر الإسكندرية وضيق الخناق على نزار وأصحابه ، ففر ابن مصال اللكي إلى بلاد المغرب ، وكان لتخليه أثر كبير في عضد نزار كما استمال الأفضل جماعة مما كانوا بجانبه مما أضعف شوكة نزار[٤]، وهكذا تمكن الأفضل من دخول الإسكندرية[٥] وهزيمة الأمير نزار والقضاء على حركته بعد أن قبض عليه ومعه والي الإسكندرية . الأفتكين . الذي سانده في حركته وبعث بهم إلى مصر بعد أن أعطاهم عهد الأمان[٦] ، ولكنه لم يف

(١) الفارابى: تاريخ الفارابى ، ص٢٦٧.
(٢) جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر ، ص١١٣.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ، جـ٢ ص٣٦ ، جمال الدين الشيال: الإسكندرية في العصر الإسلامى ، ص٥٤ ، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ، ص١١٤.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص١٤٤.
(٥) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٥ ص١٤٤، حسنى الخربوطلى: غروب الخلافة الإسلامية ، ص١١٢.
(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ، جـ٢ ص٣٧ ، اليافعى المكى: مرآة الجنان وعبر اليقظان ، جـ٣ ص١٥٣.

بعهد الأمان الذي أعطاه لهم ، وبني لنزار حائطين وجعله بينهما حتى مات، وأما الأفتكين فقد قتله بالقاهرة.

وهكذا انتهي الصراع بين نزار والمستعلي بعد أن ترك أثرا واضحا على منطقة غرب الدلتا وأبناء القبائل العربية بها ، حيث شهدت هذه المنطقة معارك ذلك الصراع ، وقد انعكس ذلك على الإسكندرية التي عانت من ويلات الحصار الذي فرضه الأفضل ، وتشتت أعيانها وقتل العديد من علمائها ، وفر الكثير من رجالها من جراء هذا النزاع.

العصر الفاطمي الثاني :

ومن مميزات العصر الفاطمي الثاني أنه تعاقب على الحكم خلاله عدد من الخلفاء الضعاف بعد المستنصر وهم:

المستعلي بالله بن الخليفة المستنصر (٤٨٧ - ٤٩٥هـ) :

وهو الذي عينه على الخلافة الأفضل بن بدر الجمالي ، حيث أخفي وصية المستنصر بالله لنزار ابنه الأكبر ، والتي قد كان أوصي فيها أن يلي نزار الخلافة من بعده ، ونظرا لصغر سن المستعلي حيث كان يبلغ من العمر عشرين سنة أراد الأفضل بن بدر الجمالي أن يعينه حتى يتسنى له التحكم في أمور الخلافة ، وبالفعل لم يكن للمستعلي مع الأفضل بن أمير الجيوش حكم ، إذ كان معه كما كان والده مع بدر الجمالي ، وضعفت الدولة الفاطمية في أيامه ، وانقطعت الخطبة لهم من أكثر مدن الشام واستولى الإفرنج على إنطاكية وبيت المقدس والرملة[1] ، وظل الأمر على ذلك حيث نشب الصراع بين نزار والمستعلي كما اتضح ذلك إلى أن توفي المستعلي في صفر سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م.

(١) إبراهيم أيوب : التاريخ الفاطمي السياسي ، ص٥٣

الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤هـ) :

بعد وفاة المستعلي سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م أحضر الأفضل ابنه أبا علي وبايعه بالخلافة، وأقامه مقام أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله ، وكان عمره في ذلك الوقت خمس سنين[١].

ولما بلغ الخليفة الآمر سن الرشد شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره الأفضل المستبد ، فأوعز إلى أبي عبد الله محمد بن البطائحي- أحد خواص الوزير- بتدبير مؤامرة لاغتياله ، ونجح في تحقيق ذلك وخلفه ابن البطائحي في الوزارة سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ، ومن أهم أعماله أنه أعاد دار العلم بعد أن كان الأفضل قد أغلقها لأمور مذهبية ، واغتيل الآمر في ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م على يد النزارية[٢].

الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤هـ) :

تولى الخلافة بعد الآمر ابن عمه الأمير أبي الميمون عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله ، وكان ذلك سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م[٣] ، وذلك بعد أن تخلص من الطفل الذي أنجبه ابن عمه الخليفة الآمر، ولم يتمكن الحافظ من المحافظة على سلطانه بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم أبا علي أحمد بن الأفضل منصب الوزارة فسيطر هذا الوزير على شئون الدولة ، وسجن الظاهر ومنع عنه الزيارة وحذف اسمه من الخطبة ثم استولى هذا الوزير على ذخائر قصر الحافظ قائلا : "هذا مال أبي وجدي"[٤].

ناهض الوزير أبو علي المذهب الإسماعيلي في الكثير من الأفعال مما جعل بعض الإسماعيلية يدبرون اغتياله ، وتحقق لهم ذلك سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م بعد أن ظل هذا الوزير مستأثرا بالسلطة لمدة سنة وشهر[٥] ، وأخرجوا الحافظ من السجن ونظرا لأنه ليس له

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص١٨٤، ابن ميسر : أخبار مصر ، ص٤٠ ، ابن خلكان: وفيات ، جـ٥ ص٢٢٩.
(٢) ابن خلكان: وفيات ، جـ٥ ص٢٢٩ ، جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٢١.
(٣) ابن خلكان: وفيات ، جـ٣ ص٢٣٥.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ، ص٣٣٢ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية ، ص١١٩
(٥) المقريزى: اتعاظ ، جـ٣ ص١٣٧، السيوطى: حسن المحاضرة ، جـ١ ص٦٠٨ ، جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٢١.

الحق في الخلافة لأنه ابن عم الآمر وليس أبنه ، فحاولوا إعادته إلى ولاية العهد وأن يكون كفيلا لولد الآمر الذي لم يعرف مقره ، ولما استقر الأمر له في هذا المنصب تخلص من ابن الآمر بعد أن بحث عنه وعرف محل إقامته بعد شهرين ، وأعلن نفسه خليفة سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م ، واتخذ يانس الأرمني وزيرا له ، ثم توفي هذا الوزير وظل الأمر على ذلك حيث تولى الحافظ أمور الدولة بنفسه ، فلم يستوزر أحدا ، وظل منصب الوزارة شاغرا حتى تولى الوزارة بهرام الأرمني والى الغربية ، الذي أكثر من بنى جنسه الأرمن وزاد ظلمه واستولى على الكثير من الأموال مما جعل أمراء الجيش يرسلون إلى رضوان بن ولخشي والى الغربية يطلبون منه النجدة من سطوة الأرمن ، فأجابهم وانضموا إليه وزادت قوته ، فاضطر بهرام إلى الرحيل عن القاهرة وذهب إلى أخيه الباساك والى قوص ، فخلفه رضوان في الوزارة سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م ، وهو أول من لقب بالملك من الوزراء[١].

ونتيجة لزيادة قوة ونفوذ رضوان ومحاولته تقوية الثغور ، استعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات ، وهيئ الناس للخروج وغزو الفرنج[٢] ، ولكن الخليفة الحافظ منعه من ذلك وحدث صدام بينه وبين الخليفة ، الذي أرسل إلى بهرام الأرمني الذي كان قد فر أمام رضوان نحو الجنوب ،وأسكنه معه القصر يستشيره في أموره ، كما حث الجند على التحرش برضوان ، حتى ثاروا عليه وضعفت شوكته ، فاضطر إلى الفرار من مصر سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ، وذهب إلى الشام ، ثم عاد وطلب الآمان من الحافظ الذي اعتقله لمدة ٨سنوات ، حتى نجح في الفرار سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧م[٣]

بعد أن فر رضوان من معتقله اجتمع إليه جماعة ممن كان يكاتبهم ، وخرج معهم إلى الجيزة ، حيث استنجد بجماعة من العربان ، وتمكن من هزيمة العسكر الذي سيره إليه الحافظ عند جامع ابن طولون ، ونزل رضوان بالجامع الأقمر وحاول الاتصال برؤساء

(١) القلقشندى: صبح ، جـ٦ ص٤٥٨ ، جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٢٣ ، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص٢١٤.
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص١٢٩ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص١٦٣
(٣) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ، ص٢١٦

الدواوين لاستعادة مكانته ، غير أن الخليفة الحافظ أمر مقدمي السودان بالهجوم عليه ، فقتلوه غدرا ، وحملوا رأسه إلى الحافظ الذي أرسلها بدوره إلى زوجة رضوان ، وكان ذلك سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[١] ، وبذلك قضي الحافظ على واحد من الذين حاولوا التصدي للأخطار الحقيقية التي كانت تهدد العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

وفي العام التالي قتل الخليفة الحافظ بتدبير من الوزير أبي الفضل عباس ، الذي خلف ابن سلار في الوزارة ، وذلك سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٢]

الظافر إسماعيل أبو المنصور (٥٤٤ - ٥٤٩هـ/١١٤٩ - ١١٥٤م) :

هو الابن الأصغر للخليفة الحافظ ، وهو أبو المنصور إسماعيل ، كان عمره سبع عشرة سنة وأشهر ، ولقب بالظافر بأعداء الله ، أتخذ الظافر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال اللكي وزيرا ، وخلع عليه خلع الوزارة ، ولقبه بـ "الأفضل أمير الجيوش سعد الملك ليث الدولة"[٣]

لم يرض ابن السلار والي الإسكندرية والبحيرة أن يلي الوزارة شيخا مثل ابن مصال، فتمكن ابن سلار من دخول القاهرة بقواته ، وإجبار الخليفة أن يخلع عليه الوزارة ويلقبه بـ "العادل سيف الدين ناصر الحق"[٤]

وقتل ابن سلار سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[٥] ، وبعد مقتله تولى الوزارة عباس الصنهاجي ولقب بـ " السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش أبو الفضل العباسي الظافري"[٦]، وقتل الخليفة الظافر سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٧]

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٤٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٢٨١
(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٧١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص٦٠٨
(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص١٤٢ ، المناوي : الوزارة ، ص٢٨٢
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣ ص٤١٦، المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣ ص١٩٦ ، المناوي : الوزارة ،
(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ، ص١٤٦، الدواداري: كنز الدرر ، جـ٦، ص٥٥٣ ، المقريزي : الخطط ، جـ٢ ، ص٥٥
(٦) ابن الأثير: الكامل ، جـ١١، ص١٨٨ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٠٢ ، المناوي : الوزارة ، ص٢٨٥
(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات ، جـ٩ ، ص١٥١، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٠٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، جـ٥ ، ص٢٨٥.

الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥هـ) :

بعد مقتل الخليفة الظافر بويع بالخلافة ابنه عيسي ، وكان في الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر الله ، وتقلد وزارته طلائع بن رزيك ، وتلقب بالملك الصالح واستبد بالسلطة ، وذلك بعد أن هرب الوزير عباس الصنهاجي إلى الشام[1] وظل قابضا عليها حتى توفي الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م دون أن يوصي بالخلافة لأحد[2].

العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ) :

لما توفي الفائز ولم يوصي بالخلافة لأحد من بعده أقام الوزير طلائع بن رزيك . عبد الله بن محمد ولقبه بالعاضد خليفة ، حيث ظل في خلافته لمدة احدى عشرة سنة وستة أشهر ، وتولى وزارته بعد طلائع شاور والي إقليم قوص ، ثم ضرغام أمير الباب ، ثم شاور مرة أخري ، ثم أسد الدين شيركوه قائد جيش نور الدين محمود ، ثم ولي الوزارة صلاح الدين الأيوبي الذي استبد بالأمر وخلع الخليفة العاضد لدين الله من منصب الخلافة ، وكان ذلك سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، وتوفي الخليفة مباشرة ، وقد شهد عصر الخليفة العاضد منافسات دامية بين ولاة الأقاليم في سبيل الوصول إلى منصب الوزارة ، ومثال لذلك الصراع الذي نشب بين الوزيرين شاور وضرغام ، وهو آخر حلقة من حلقات المنافسة التي انتهت بنهاية الدولة الفاطمية كما سيتضح بعد ذلك.

الصراع بين شاور وضرغام وسقوط الخلافة الفاطمية:

شهدت مصر الصراع العنيف الذي نشب بين شاور وضرغام حول منصب الوزارة، وكان يومئذ أخطر منصب في الحكومة.

ثارت غرب الدلتا بما فيها من قبائل عربية سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، وذلك في شخص واليها الأمير على بن السلار ، عندما استوزر الخليفة الفاطمي الظافر بالله ابن مصال اللكي حتى آلت الوزارة إلى ابن السلار ، الذي استأثر بالنفوذ في الحكومة الفاطمية[3].

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ص١٩٣

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣ ص٢٣٧، المقريزى: اتعاظ ،جـ٣ ص٢٣٩ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، ص١٤٨

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ، جـ١ ص٣٧، ٤٦٧، ٤٦٨، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص ١٩٥، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص٩٩ ، محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء ، ص٢٨٤،٢٨٢

وفي وزارة الصالح طلائع بن رزيك في التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م تولى شاور[١] ولاية الصعيد، وازدادت مكانته، مما دفع ابن رزيك بأن يوصي ابنه العادل بعدم عزله عن ولاية الصعيد ليتجنب الدخول معه في صراع، غير أن العادل بن رزيك قام بعزله عن الولاية عندما آلت إليه الوزارة بعد وفاة أبيه الصالح[٢].

ولما علم شاور بعزله ثار عليه، وكثيرا ما كان يتخذ شاور من أبناء القبائل العربية في غرب الدلتا سندا له في صراعه مع خصومه، ولا مراء أن أبناء قبيلة جذام كانوا أغلب المساندين له، حيث أنه ينسب إليها، كما أنه تقدم من الصعيد نحو القاهرة ودخلها سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م[٣]، وتمكن من القبض على العادل بن الصالح بن رزيك وزير الخليفة العاضد في مدينة إطفيح - إحدى مدن محافظة الجيزة الحالية -، وتمكن طيئ أحد أبناء شاور من قتل العادل بن رزيك في المحرم سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م[٤]، وهرب بعد ذلك سائر أفراد ابن رزيك خارج مصر، وبذلك انفرد شاور بالسلطة المطلقة في الوزارة[٥].

ولكن أفعال أولاد شاور مع الأهالي جعلته مكروها عندهم، وكان ذلك سببا في إشعال ضرغام[٦] - أمير البرقية - الثورة على شاور، وتمكن من هزيمته، ولا مراء أن العديد من الجماعات العربية وقفت بجانبه أيضا، وخاصة أبناء قبيلة لخم التي ينسب إليها ضرغام[٧]

(١) شاور: هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاش بن مغيث بن حبيب بن الحارس بن ربيعة بن مغيث بن أبي ذويب عبد الله، والد حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ، وينسب إلى قبيلة جذام - فبنى سعد فخذ من جذام، محمد المناوى: الوزارة والوزراء، ص٢٨٨.

(٢) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص١٨٧، ١٨٨، محمد المناوى: الوزارة والوزراء، ص٢٨٧.

(٣) محمد المناوى: الوزارة والوزراء، ص٢٨٧، محمد زيتون: إقليم البحيرة، ص٣٥٢.

(٤) حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص١٨٨، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣٠٠.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، تحقيق محمد حلمى أحمد، جـ٣ ص٢٥٤، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣٠٠

(٦) ضرغام: هو ضرغام بن عامر بن سور اللخمى، نسبة إلى قبيلة لخم العربية.

(٧) البرقية: هي فرقة أنشأها الصالح طلائع بن رزيك - من الجند من برقة – كانت من خواصه جعل عليها ضرغام، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص٣٠٠، حمدى المناوى: الوزارة والوزراء، ص٢٨٩.

وبوصول ضرغام إلى منصب الوزارة في رمضان سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م[١] فر شاور إلى دمشق لاجئًا إلى نور الدين محمود، وطلب من نور الدين أن يمده بقوة عسكرية تعينه على العودة إلى منصب الوزارة المصرية متعهدا بأن يدفع هو تكاليف الحملة كاملة، وأن يؤدي إلى نور الدين ثلث خراج مصر في كل عام ليستعين به على مواجهة الفرنجة في الشام، وأن يمنح جنده الإقطاعات، وذلك مقابل عودته إلى منصب الوزارة[٢].

رحب نور الدين محمود بضيفه شاور وأكرم ضيافته، ولكنه لم يستجب لطلبه، حيث كان مترددا في قبوله، وذلك لمخاوفه أن يصبح طرفا من أطراف النزاع الداخلي في مصر، هذا بجانب أمور الشام التي كانت تحتاج منه إلى اليقظة والتفرغ التام[٣].

ظل شاور في دمشق نحو سنة حتى فرضت الظروف نفسها على نور الدين محمود ليغير وجهة نظره، ويلبي رغبة شاور، ولعل أهم هذه الظروف هو تحرك حملة إفرنجية إلى مصر بقيادة عموري ملك بيت المقدس[٤]، هذا بجانب إلحاح قائده الأول أسد الدين شيركوه الذي كان يرغب في الذهاب إلى مصر ويصبح نائبا عن نور الدين محمود بها[٥]، وحسن له التدخل في شئونها بمعاونة شاور كي يعود إلى الوزارة فيصبح شاور من رجاله، وتصبح أموال مصر عونا له في تصريف أمور الشام، كما أن موافقة نور الدين هذه كان يهدف من وراءها إلى توحيد الجبهة الإسلامية استعدادا لمقاومة الخطر الصليبي، وحماية مصر والشام من مطامعهم[٦].

وكان مجيء الحملة التي أعدها نور الدين محمود سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، ونجح شيركوه مع شاور ومعه صلاح الدين الأيوبي في الاستيلاء على إقليم الشرقية، فأصاب

(١) المقريزي: الخطط، جـ١ ص٣٥٨، جمال الدين الشيال: مصر في العصر الفاطمي، ص٤٥٤، محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء، ص٢٨٨

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥ ص٣٤٦، ابن الأثير: الكامل، جـ١١ ص١٢١، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ص٣٠١، ٣٠٢، جمال سرور: الدولة الفاطمية، ص١٢٧

(٣) سوسن محمد نصر: دراسة في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص٣٢.

(٤) سوسن محمد نصر: دراسة في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص٣٢، ٣٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٩ ص٨٤، ٨٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٣٧.

(٦) جمال الدين الشيال: مصر في العصر الفاطمي، ص٤٥٤.

ضرغام الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في حالة تمكنه من المقاومة ، فأرسل ضرغام يستنجد بالقوة المناوئة للمسلمين - الفرنجة - وعلى رأسهم عموري ملك بيت المقدس الذي كان يقاتله قبل مجيء شاور وشيركوه[١] ، فتلكأ عموري في نجدته ، فتقدمت جيوش شيركوه ومعها شاور واستولت على مدينة الفسطاط وما حولها ، وتمكن من الانتصار على جيش ضرغام الذي تفرق عنه قواده وأعوانه ، ثم انتهي الأمر بقتله أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩هـ /١١٦٣م[٢] بعد أن ظل في منصب الوزارة لمدة تسعة أشهر[٣].

ونتيجة لهذا عاد شاور إلى منصب الوزارة مرة ثانية ، وتلقب "بالملك المنصور" وكتب له العاضد سجلا بتوليه الوزارة وكان ذلك في شهر رجب من نفس السنة التي قتل فيها ضرغام[٤] ، وبذلك توطدت أقدام شاور وأضحت قوته ثابتة بعد أن أمن بمقتل غريمه - ضرغام - غير أن شاور ماطل في الوفاء بوعده المالي لنور الدين محمود ونفذ صبر شيركوه من المطالبة ، فتقدم نحو إقليم الشرقية واستقر ببلبيس وأخذ في جمع الأموال بنفسه[٥] ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل إذ لجأ إلى الفرنجة واستنجد بعموري ووعده بمال كثير ، فسارع عموري بتلبية النجدة لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر ، فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم محاصرة في الشام من الشمال والجنوب[٦].

حاصر عموري شيركوه في مدينة بلبيس ثلاثة شهور[٧] ، وأحس نور الدين محمود بما يهدد جيشه في مصر من خطر ، فبدأ يهاجم أملاك الصليبيين في الشام ليضطر ملك

---

(١) سوسن محمد نصر: دراسة في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص٣٤، حسن حبشي: نور الدين والصليبيون ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٠٦.

(٢) المقريزى: خطط ، جـ١ ص٣٥٨ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٤٧.
Devonshire: Le Egypte musulmane et les Fondateurs..., P47

(٣) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص٣٥٨ ، محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء ، ص٢٨٩.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٠ – ٣١٨ ، ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص١٣٩،١٢٧ ،حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ، ص١٠٢ ، محمد المناوى: الوزارة والوزراء ، ص٢٨٩.

(٥) أبو المحاسن النجوم الزاهرة: ، جـ٥ ص٣٤٧

(٦) جمال الدين الشيال: مصر في العصر الفاطمى ، ص٤٤٥ ، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٢٨، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٣٠٢.

(٧) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٣٥٨ ، ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص١٤٠

بيت المقدس إلى العودة لملكته مما جعل عموري يفكر جديا في الانسحاب ، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحبا معا في وقت واحد من مصر(١).

خرجت القوتان من مصر ، ولم يكن هذا نهاية الأمر ، بل حاول كل منهما الاستيلاء على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، وخاصة بعد أن لفتت بسياستها أنظار كل منهما ، فقد رأي شيركوه ضعف حالها وقلة حيلتها في الدفاع عن نفسها إذ لم يتمكن ضرغام الوزير المقتول من الاعتماد عليها في مقاومته ، وأيضا شاور الوزير الذي استعان بقوة خارجية لمواجهة أطماع شيركوه(٢) ، الذي بدأ يهون على نور الدين محمود غزو مصر والاستيلاء عليها ، حتى أطمعه في امتلاكها.

واتفق الرجلان نور الدين ، وشيركوه على إعداد حملة أخري لفتح مصر قبل أن يسبقهما إليها عموري ، وسارت الحملة وعلى رأسها أسد الدين شيركوه ، وكان يصحبه للمرة الثانية ابن أخيه صلاح الدين ، وكان ذلك سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م أي بعد سنتين من الحملة الأولى(٣).

دخل شيركوه مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ، ونزل بالجيزة حتى لا يحاصر في بلبيس مرة أخري ، عندئذ تيقظ شاور لهذا الخطر فأخذ في جمع المقاتلين ، وأرسل في نفس الوقت يستعين بملك بيت المقدس الذي بادر إلى مصر ، لا لنجدة شاور بل خشية من استيلاء شيركوه عليها ، وتقع مملكته بين قوة نور الدين في مصر والشام ، وضرب عموري سرادقه بالقرب من الفسطاط في مواجهة شيركوه ، فحاربهم شيركوه وهزمهم بعد معركة عنيفة عرفت باسم "معركة البابين" على مقربة من المنيا(٤).

ثم قسم شيركوه جيشه إلى قسمين وأرسل أحدهم مع ابن أخيه صلاح الدين إلى الإسكندرية بعد أن كتب إلى أهالي المدينة وأعيانهم يستنجد بهم ضد شاور عميل

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٣٥٨ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٤٨
(٢) أحمد عبد الرازق أحمد: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص١٩٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل ، جـ٩ ص٩٤ ، ٩٦ ، ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص١٤٨، أبو المحاسن:النجوم الزاهرة، جـ٥ ص٣٤٨ ، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٣٠٣ ، ٣٠٥
(٤) أبو شامة: الروضتين ، جـ٢ ص١٤٠، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ، ص٢٨
Recueil: des historiens des croisa des, Hist. Occ, paris, 1844, P, 928., Schlumberger: Campagnes du roi Amaury ler, de Jerusalem en Egypt ou xlle siecle, paris, 1906, p. 142,143.

الصليبيين ، فأجابوه وسلموه المدينة[١] ليتخذها قاعدة له فى مصر لمحاربة الفرنجة بعد أن خرج إليه أعيان المدينة وعلى رأسهم واليها بن مصال ، وقاضيها بن الحباب ، وناظرها القاضي الرشيد بن الزبير ، وحملوا إلى شيركوه أموالا طائلة لمساعدته ، ونزل شيركوه قصر الإسكندرية[٢]، وسار هو على القسم الآخر من جيشه جنوبا لفتح بلاد الصعيد وجمع الأموال[٣]، وهنا أسرع عمورى وشاور وراء صلاح الدين إلى الإسكندرية لمحاصرته بها ، فدام الحصار أربعة أشهر[٤].

ظل صلاح الدين صامدا ضد الحصار بفضل مساندة أهالي المدينة بما فيهم أبناء القبائل العربية ودافعوا عنها أشد دفاع حتى أدركه شيركوه واستطاع رفع الحصار ، وتفاوض الجانبان واتفقا على أن يخرج الجيشان الغريبان من مصر ، وعلى أن يدفع شاور لشيركوه مبلغ من المال قدره "خمسون ألف دينار" ترضية لمولاه نور الدين محمود[٥] ، ولكن شاور تفاهم مع عمورى على إبقاء حملة إفرنجية قريبة من القاهرة للنجدة السريعة ، وكان ذلك تحقيقا لمأرب عمورى ، حيث يتيح له ذلك وجود قدم ثابتة فى مصر تنبئه بأحوالها وتمهد له السيطرة عليها فيما بعد ، هذا بجانب ما أخذه عمورى من أمواله تقدر بأضعاف ما أخذه شيركوه[٦] ، كما اتفق الطرفان على أن تعاد الإسكندرية إلى المصريين[٧].

فتحت الإسكندرية أبوابها ودخلها المصريون ، ولم يخرج منها صلاح الدين الأيوبي إلا بعد أن استحلف شاور وأوصاه بألا يتعرض لأهلها بسوء ، ولكنه لم يف بذلك حيث تتبع أعيانها ففر واليها "ابن المصال" إلى الشام ، وقتل ناظرها الرشيد بن الزبير ، وقبض على قاضيها ابن الحباب وعاقبه[٨].

---

(١) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٤٥، ١٦٨ ، السيد الباز العرينى: مصر في عصر الأيوبيين ، ص٢٩.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص١٩٩، السيد الباز العرينى: مصر في عصر الأيوبيين ، ص٢٩.
(٣) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٤٥، ١٦٨، السيد الباز العرينى: مصر في عصر الأيوبيين ، ص٣٠ ، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٢٨
(٤) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٤٥، ١٦٨،المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٣٥٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٤٩
(٥) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٤٣
(٦) أبو شامة: الروضتين، جـ١ ص١٤٣، ابن واصل: مفرج ، جـ١ ص١٥٧ ، أبو المحاسن: النجوم ، جـ٥ ص٢٤٩
(٧) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٤٣.
(٨) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٤٧، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية ، ص١٩٩.

لم تغادر قوات الصليبيين مصر كلها كما نص الصلح مع شيركوه ، بل ظلت بمصر حامية صليبية كما اتفقوا مع شاور ، وأدى وجود هذه الحامية بالبلاد إلى إطلاعهم على أحوالها مما جعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها ، فبعثوا إلى ملكهم عمورى يهونون عليه أمر امتلاكها حتى يقضى قضاءا تاما على مطامع نور الدين فيها ، وحتى يعتمد على موارها فى بدء تحرك جديد لإستعادة بقية بلاد الشام[1] ، فخرج عمورى على رأس حملة لاحتلال مصر وتقدم نحو شرق الدلتا فى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ، وكان ذلك تحت تأثير ضغط رجاله ، وعندما أحس شاور بقدومه أرسل إليه بعثه من رجاله يستفسر عن سبب عودته إلى مصر ، فتظاهر بأنه إنما جاء ليؤمن البلاد ضد نور الدين الذى يحاول السيطرة عليها ، ولكن شاور لم ينخدع بذلك واستعد للمقاومة[2] .

وبلغ نبأ هذه الحملة نور الدين ، فأخذ في إعداد جيش كبير واستدعى قائده شيركوه الذى كان خارج دمشق ليتولى قيادة هذا الجيش نحو مصر[3].

وكان عمورى قد عاث فسادا فى بلبيس ، حيث قتل الرجال والنساء والشيوخ مما جعل شاور يجمع جاليتهم بالقاهرة وقتل منهم جماعة كبيرة ، وحفر خندقا وبنى حصنا حول القاهرة ، ثم أحرق الفسطاط وهاجر أهلها إلى القاهرة بعد أن وزع عليها عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل[4]

وقد أحرق شاور الفسطاط حتى لا ينتفع بها عمورى عندما يصل لمحاصرة القاهرة ، وفكر فى الاستعانة بنور الدين محمود ولكنه خشي أن يرفض ، فطلب من الخليفة الفاطمي العاضد أن يكتب إليه بنفسه ، ففعل وأرسل ضمن الخطاب خصلا من شعور أميرات البيت مبالغة فى طلب النجدة[5] ، فرحب نور الدين بالاستغاثة حيث صادفت

(١)أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٥٠ ، ص٣٠ ، جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٢٩

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ٥ ص٩٨ ، ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص١٥٧، أبو شامة: الروضتين، جـ١ ص١٥٤، ١٥٥ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٥٠.

(٣) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية ، ص٤٧٠ ، عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين ، بيروت ١٩٦٧م ، ص٦٩

(٤) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٥٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، جـ٥ ص٩٨ ، ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص١٥٧ ، أبو شامة: الروضتين، جـ١ ص١٥٥،١٥٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٥٠.

تجهيز للجيش المتقدم نحو مصر، واهتم نور الدين بهذه الحملة وأرسل فيها ألفين من حرسه الخاص[١] ، وخرج معه صلاح الدين الأيوبي بعد أن أرغمه نور الدين محمود، فخرج وهو يقول: "خرجت مع عمى كارها وأنا كمن يقاد إلى المذبح"[٢].

وصلت الحملة التي قادها شيركوه مصر في ربيع الأخر سنة ٥٦٤ هـ /١١٦٨م[٣] ، وقبل وصولها اتفق الصليبيون مع شاور على الصلح الذى عرضه عليهم مقابل مائة ألف دينار[٤] ، على أن يرد إليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد[٥] ، ورحل الفرنجة عن مصر بعد أن اقترب جيش نور الدين من القاهرة ، ولم تشتبك جيوش عموري مع شيركوه في معركة حربية[٦].

استقبل الخليفة الفاطمي العاضد بالله شيركوه وأكرمه وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات ، وحاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء ، فنهاه ابنه الكامل وقال له : "والله لأن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين" ، فعدل شاور عن عزمه بعد أن اقتنع برأي ابنه الكامل[٧] ، واحتفظ بعلاقة حسنة مع شيركوه ، وتضايق صلاح الدين من هذا الموقف ، فاستجاب لتآمر بعض رجاله على شاور مثل عز الدين جرديك ، وأرسل الخليفة العاضد في نفس الوقت إلى أسد الدين شيركوه يطلب رأس شاور ويحثه على الخلاص منه ، وبذلك قتل شاور في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[٨].

(١) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٥٥، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ، ص٣٠٦
(٢) ابن طباطبا: الآداب السلطانية ، بيروت ، ص٢٦٤ ، أحمد عبد الرازق: تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص١٩٧.
(٣) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٥٥ ، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية ، ص١٩٣.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٥٠.
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص١٦٠.
(٦) سوسن محمد نصر: دراسة في التاريخ الأيوبي والمملوكي ، ص٣٨.
(٧) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٥٦ ، ١٥٧.
(٨) ابن الأثير: الكامل ، جـ٩ ص١٠١ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص١٥٧ ، ١٧٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان، جـ١ ص٣٩٤ ، المقريزى: السلوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ ، جـ١ ص٤٣

وتلى مقتل شاور إجراء خطير تمثل في تعيين شيركوه وزيرا للعاضد ، ولقبه بـ "السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش"[١] ، ولكن شيركوه لم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين ، حيث توفي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[٢] .

واختير صلاح الدين مكان عمه في الوزارة ، ولقب بـ "الملك الناصر" في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ، وكان عمره حينذاك إحدى وثلاثين سنة[٣] ، وكتب له العاضد سجل الوزارة بخط يده ، وألبسه خلعة الوزارة أمام جمع عظيم من موظفي الدولة[٤].

وفي ظل وزارته بدأت تظهر ملامح عهد جديد ، وتمثل ذلك في إحلال المذهب السني محل المذهب الشيعي ، ولا مراء أن منطقة غرب الدلتا بما فيها من قبائل عربية كانت أول المناطق التي تقبلت هذا التحول ، حيث كان العديد من أبنائها يعتنقون المذهب السني في ظل الخلافة الفاطمية.

وبعد العديد من الإجراءات تمكن صلاح الدين الأيوبي من السيطرة على زمام الأمور، حيث عزل قضاة مصر الشيعيين ، وقطع أرزاقهم وأحل محلهم أهل السنة مثل صدر الدين عبد الملك بن باديس الشافعي الذي عينه قاضيا للقضاة[٥]، كما شرد الدعاة الشيعة ، وألغي أصول المذهب الشيعي مثل الآذان ، وحذف العبارات الشيعية التي كانت تكتب على العملة والطراز مثل "على ولى الله"[٦] ، وعطل الجامع الأزهر لأنه كان يدرس فيه المذهب الشيعي[٧] ، وأخذ في بناء المدارس لنشر تعاليم المذهب السني في أنحاء مصر بما فيها غرب الدلتا[٨].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ١٠ ص٩٠، ٨٠ ، أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٧٤، ١٥٨.
(٢) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٦٠ ، السيد الباز العرينى: مصر في عصر الأيوبيين ، ص٣٣ ، جمال سرور: الدولة الفاطمية ، ص١٣١ ، محمد المناوى : الوزارة والوزراء، ص٢٩٠.
(٣) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٦٠ ، عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ، ص٢٩٠
(٤) القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ١٠ ص٣٨٠ .
(٥) المقريزى: الخطط ، جـ١ ص٣٥٩ ، سوسن نصر: دراسة في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص٤٥.
(٦) مايسة محمود داود: المسكوكات الفاطمية في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، القاهرة ١٩٩١، ص٤٧.
(٧) المقريزى: الخطط ، جـ٢ ص٢٧٦ ، حسن عبد الوهاب: المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦، جـ١ ص٥٣ ، ٥٤.
(٨) المقريزى: الخطط ، جـ٢ ص٣٦٣ ، السيوطى: حسن المحاضرة ،جـ١، ص٣٥٩.

وكان آخر إجراء قام به هو قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله ، وكان ذلك من أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ /١١٧١م ، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله بعد انقطاع دام قرنين من الزمان[١] ، وبذلك كانت نهاية الدولة الفاطمية وبعدها بأيام توفي الخليفة الفاطمي الأخير العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[٢].

وتروي المصادر التاريخية روايات متعددة بصدد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد بالله منها ، أن صلاح الدين الأيوبي لما خطب لبني العباس ، ورفع اسم العاضد من الخطبة ، اغتم العاضد وقتل نفسه[٣] ، وقيل أيضا أنه كان في يده خاتم فيه مادة سامة ، ولما علم بإسقاط اسمه من الخطبة ابتلعه فمات في الحال[٤] ، وروي أيضا أن الطبيب الذي كان يعالجه لما رأي رغبة صلاح الدين في عزله امتنع عن مداواته حتى مات[٥]كما زعمت بعض مصادر الفرنجة أن توران شاه أخا صلاح الدين هو الذي تولى قتل العاضد بنفسه[٦].

(١) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٩٤ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣٤١
(٢) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٩٤.
(٣) أبو شامة: الروضتين ، جـ١ ص١٩٦ ، ابن واصل: مفرج الكروب ، جـ١ ص٢٠٠، ٢٠١.
(٤) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية ، ص٤٨٤.
(٥) عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية ، ص٤٨٤.
6 - Encyclopedie: del. Islam art, al Adid IV,p88.